

درس أوباما والعلاقات مع العرب

د. خالد الدخيل

يتردد في العالم العربي هذه الأيام، أن أميركا في زمن الرئيس باراك أوباما لم تعد أميركا التي عرفتھا المنطقة وتعودت علیھا. تبدو أميركا أوباما الآن كأنھا انقلبت علی حلفائھا العرب، المصريون یتهمونھا بأنھا تدعم حركة «الإخوان المسلمین» ضد حكم الرئيس عبدالفتاح السیسی، وما یعتبرونه ثورة 30 تموز (یولیو) وما استكملته من ثورة 25 كانون الثانی (ینایر).

الخليجیون (أنا مضطر لهذا التوصیف اضطراراً، وقد أعود إليه)، بخاصة السعودیین منهم، یقولون أنها لم تعد معنیة كثيراً بالتحالف معهم، ولا بما ینطوي علیه هذا التحالف من مصالح اقتصادی وسياسية كبيرة ومشتركة. فهي أولاً غزت العراق، وسلّمت الحكم فيه لحلفاء ایران.

وفي ظل احتلالها وحكم هؤلاء الحلفاء لم تكتفِ أميركا جورج بوش الابن، ثم باراك أوباما تالياً، بتنامي نفوذ إیراني هناك، وإنما تعايشت معه، بل وتحالفت معه في ما تعتبره حربها علی إرهاب تنظيم «الدولة الإسلامية» (داعش). بعد ذلك وعندما قامت الثورة السورية، تخلّت واشنطن أوباما عن الشعب السوري تاركة إياه هدفاً یومياً للقتل والتهجير علی يد النظام السوري وإیران بمیلیشياتها، ثم روسيا بسلاحها الجوي.

في سباق ذلك، لاحظ أكثر أن موقف أوباما من الثورة بدأ بمطالبة الرئيس السوري، بشار الأسد، بالتنحي، ثم هدّد بتوجيه ضربة لقواته علی خلفية استخدامھا السلاح الكیماوي في صیف 2013، وتراجع عن تهديده لینتهي بتسليم سوريا للروس. منذ أسابيع فقط، أخذت إدارة أوباما تتفاوض مع الروس علی الصیغة التي یجب أن ینتهي إليها هذا التسليم.

ما بین الغزو الأميركي للعراق ونتائجه المدمرة، وتسليم سوريا لروسيا، وقعت إدارة أوباما الاتفاق النووي مع ایران في صیف 2015. في الأسبوع الماضي، تُوّج التحوّل الأميركي بتمرير الكونغرس قراراً یسمح لعائلات ضحايا أحداث الحادي عشر من أیلول (سبتمبر) 2001 بمقاضاة الأشخاص والجهات والدول الأجنبية للحصول علی تعويضات منها لقاء دعمھا إرهابي تلك الأحداث.

لم یرد إسم السعودية في هذا القرار، لكنها تبقى الهدف الرئيسي من ورائه. یقال أن الرئيس أوباما

لا يتفق مع الكونغرس في ذلك، وبالتالي سيمارس حقه في نقض القرار. لكن نظراً إلى أن تمرير القرار تم بالإجماع في كل من مجلسي الشيوخ والنواب، فالأرجح أن يرفض الكونغرس نقض الرئيس، وأن يتم إقراره كقانون ملزم.

في الأسبوع نفسه، وقعت إدارة أوباما اتفاقاً تاريخياً مع إسرائيل لتقديم مساعدات عسكرية لها غير مسبقة بحجم 38 بليون دولار على مدى عشر سنوات تحصل بموجبه على أحدث ما أنتجته مصانع السلاح الأميركية، بما في ذلك مقاتلات «إف 35»، الأكثر تقدماً لهذا النوع من الطائرات.

حجم التحوّل الأميركي واضح هنا. لكنه تحوّل يخصّ العرب. أما إسرائيل فتبقى ثابتاً من ثوابت السياسة الأميركية. الأكثر وضوحاً بهذا المعنى هو موقف الرئيس أوباما وإدارته من الأحداث التي تعصف بالمنطقة لأكثر من خمس سنوات حتى الآن. وأكثر ما يتميز به موقف الرئيس أنه ينطوي على تغيير لافت في سلبته تجاه حلفاء أميركا، بخاصة السعودية ومصر.

في الوقت ذاته، هو موقف مرتبك لأنه يفتقد سياسة خارجية واضحة المعالم والأهداف. يريد أوباما تغييراً وإصلاحات ثقافية وسياسية في دول هؤلاء الحلفاء. لكنه يتبع معهم سياسات مربكة لا يبدو أنها تصبّ في مصلحتهم أو مصلحة أميركا.

أنظر مثلاً إلى موقفه من سورية. هو لا يريد التدخل العسكري هناك. وهذا مفهوم تماماً بعد الفشل الذريع في العراق. لكنه يستخدم هذا كذريعة باتت مكشوفة للتغطية على ارتباك سياسي أمام تطورات الموقف هناك. فإذا كان لا يريد التدخل، وهذا مفهوم ومقدّر، إلا أنه كرئيس للدولة الأعظم لا يستطيع الاكتفاء بذلك من دون أن يأتي ببديل سياسي لا يتناقض مع موقفه المبدئي، وفي الوقت نفسه يتفق مع الوزن السياسي والعسكري لهذه الدولة.

وقوف أميركا على الحياد في مثل هذه الحالة هو موقف مؤثر بأكثر ما يكون التأثير. من هنا، فإن مأزق أوباما، ومأزق العالم معه، أنه توقّف في خياراته عند رفض التدخل، من دون أن يتمكن من عزل نفسه عن تطورات الأحداث في سورية. تفاقم القتل والتدمير هناك، وتفاقم عدم الاستقرار في المنطقة، وتوسعت دائرة الإرهاب متوجّهة بـ «داعش»، ثم جاءت أكبر عملية تهجير منذ الحرب العالمية الثانية. لا يستطيع أوباما أن يهرب من المسؤولية عن ذلك كله. أميركا ليست نيكاراغوا، أو النيجر. لم يرد الرئيس، وربما لم يتمكن من استخدام المفاوضات النووية مع إيران كورقة ضغط لفرض البديل السياسي الذي يراه في سورية. على العكس، بدا كأن هذه المفاوضات تضغط على إدارته وليس على إيران. وهذه مفارقة مربكة. وما يبدو على الأرض هو في الواقع ترجمة لما يقوله ويردده أوباما في أحاديثه وخطبه. في الثاني من آذار (مارس) 2014، قال الرئيس الأميركي التالي عن إيران الجمهورية الإسلامية: «ما أدركته منذ سنوات عن إيران أنها لاعب دولي غير مسؤول. تدعم الإرهاب، وتهدد جيرانها، وتموّل أعمالاً أدت إلى القتل في الدول المجاورة. إلى جانب ذلك، إيران استغلت وسعرت الانقسامات الطائفية في دول أخرى». في الحديث نفسه سئل أوباما: «أيهما أخطر، التطرف السني؟ أم التطرف الشيعي؟».

يقول جيفري غولديبرغ الذي كان يحاور الرئيس: «كانت إجابته كاشفة.»، حيث قال: «ما سأقوله... أنك إذا نظرت إلى سلوك الإيرانيين ستجد أنهم استراتيجيون، ليسوا متهورين. لديهم رؤية عالمية، ويدركون مصالحهم، ويستجيبون للتكاليف والمنافع.» (موقع بلومبرغ فيو، 2 مارس، 2014م). بعبارة أخرى، يعتبر أوباما أن القيادة الإيرانية عقلانية.

في المكان نفسه، يقول: «هذا لا يعني أن النظام الذي تتربع على قمته هذه القيادة ليس ثيوقراطياً». هنا يبدو الالتباس في مفهوم أوباما للعقلانية.

فعقلانية العصر الحديث لها إطار واحد، هو الدولة والقانون ومفهوم المواطنة. كيف يمكن أن تجتمع في هذه الحالة الثيوقراطية والعقلانية في رأس قيادة واحدة؟

هل من العقلانية تسعير الطائفية ونشر الميليشيات، كما يقول الرئيس، في العراق وسورية، ودعم نظام ديكتاتوري دموي في سورية؟

لا يمكن اتهام أوباما بالسذاجة أبداً. لكن هواه السياسي ورؤيته المرتبكة لمصالح أميركا يمنعانه من مواجهة تناقض رؤيته السياسية، وأن ما تقوم به إيران يقترب من حافة الانتحار اللاعقلاني.

آخر معالم ارتباك أوباما وإدارته، اتفاقه الأخير مع روسيا لوقف النار في سورية ورفض إعلان تفاصيل الاتفاق مع مطالبة روسيا بذلك. هذا واضح، ما ليس واضحاً حتى الآن هو المآل الذي سيستقر عليه التحول الأميركي. وفي هذا مساحة واسعة للحديث والتفكير وإعادة النظر في أمور كثيرة ذات علاقة مباشرة أو غير مباشرة بعلاقات الرياض وواشنطن.

بات من الواضح أن واشنطن لا تعتبر السعودية حليفاً، وإنما شريكاً تخضع العلاقة معه لظروف الوضعين الدولي والإقليمي وتقلباتهما. وعلى السعودية في هذه الحالة مراجعة رؤيتها للعلاقة مع واشنطن على هذا الأساس.

ف برئاسة أوباما وهي تقترب من نهايتها، قدمت درساً مفيداً عن العلاقة مع أميركا، وكيف يمكن لهذه العلاقة أن تفاجئ الجميع بما ليس في حساباتهم. وليس من المصلحة الارتهان لمثل هذه التقلبات المفاجئة وغير المحسوبة.

* د. خالد الدخيل كاتب وأكاديمي سعودي

المصدر | الحياة